المشروع النقدي عند عبد الحميد بورايو

The critical project of Abdelhamid Bourayou

أ. حمزة بسو*

تاريخ الاستلام: 22 10 2018 تاريخ القبول: 24 01 2019

ملخّص: تسعى هذه الدّراسة إلى تسليط الضوء على مشروع النّاقد الجزائري عبد الحميد بورايو، وهو مشروع يمتدّ زمنيا من سبعينيات القرن الماضي إلى يومنا هذا، ويندرج معرفياً ضمن المساعي الراميّة إلى تحديث الدّراسات الأدبيّة السّرديّة العربيّة، خاصة الشّعبيّة، بأدوات منهجيّة حداثيّة، في ممكنها الكشف عن البنى التّركيبيّة والدّلاليّة والرمزيّة للنصوص المعالجة. وقد حرص، أثناء ذلك على احتذاء مكتسبات المناهج الغربيّة دون الخضوع لصرامتها، ودون الاقتصار على رؤيّة مُنظِّر معيّن، بل استفاد من مختلف الطروحات النّقديّة الغربيّة، مُكيِّفاً إيّاها مع خصوصيّة النّص العربيّ؛ الفنيّة والمرجعيّة.

وقد تحدّدت معالمُ مشروعه من خلال التّأسيس والتّأصيل تارة، والممارسة التّطبيقيّة تارة أخرى، والتّرجمة طورا آخر، وهذه الأطر الثّلاثة هي ما شكّلت منتظمةً توليفةَ مشروعِه النّقدي.

كلمات مفتاحيّة: النّقد الأدبيّ الجزائري؛ المشروع النّقدي؛ عبد الحميد بورايو المناهج النّقديّة؛ خطاب.

* جامعة محمد لمين دباغين سطيف2. مخبر التّأويل والدّراسات الثّقافيّة المقارنة، المشرف: أمحمد عزوي، جامعة سطيف2، الجزائر، البريد الإلكترونيّ: Hamza.bessou@gmail.com

Abstract: This study highlights the project of the Algerian critic Abdelhamid Bourayou; it is a project that extends from the seventies to the present day. It is cognitively part of the work aiming at the modernization of Arabic narrative literary studies, by the detection of the syntactic, semantic and symbolic structures of the treated texts. He wanted to follow the achievements of Western methodologies without submitting to their prescriptions, but he benefited from various Western critical theses, adapting it to the specificity of the Arab text, technical and referential aspects.

Keywords: Algerian literary criticism; The critical project; Abdelhamid Bourayou; Critical Approaches; Discourse.

1. مقدّمة: ينبني مشروع النّاقد الجزائري عبد الحميد بورايو على الطروحات الغربيّة المعاصرة في مجال علم السّرد، وهو مشروع تعود أولياته إلى نهايّة السّبعينيات من القرن الماضي، بعد أن وجه بوصلة اهتمامه إلى المسرودات الشّعبيّة، وجعل منها بؤرة الممارسة النّقديّة، وقد كان قبل ذلك شديد الميل إلى النّقد السّوسيولوجي الذي يتواءم معرفيا مع قناعاته الإيديولوجيّة ذات التّوجه اليساري خاصة طروحات جورج لوكاتش وتحليلاته للروايّة الواقعيّة.

غير أن تخصّص النّاقد بورايو أكاديميا في مجال الأدب والثّقافة الشّعبيّة حمله على تحويل مساره النّقدي على مستوى الرؤيّة والمنهج معا، فكان أن لفت انتباهه المنهج الشّكلاني الروسي مع رائده فلادمير بروب، وكذلك البنيويّة الأنثروبولوجيّة عند ليفي ستروس، فضلا عن طروحات تودوروف وكلود بريمون وغريماس ولوسيان غولدمان، وقد كان وراء هذا الاهتمام طبيّعة الإنتاج الثّقافي الشّعبيّ الذي وجه له عنايته، فصار يمثل المادةَ الأساسيّة لاهتماماته البحثيّة، والحقلَ التّجريبيّ لآليات المناهج النّسقيّة الغربيّة.

لقد تمّ إبداع هذا الإنتاج السّردي الشّعبيّ في عصور موغلة في القدم، وظل متداولا يعاد إنتاجه عبر الحقب التّاريخيّة، ومن الصعوبة بمكان تفسيره بالوسائل المنهجيّة التّي يتيحها المنهج السّوسيولوجي –الذي اعتنقه بدايّة تجربته النّقديّة– وذلك بسبب صعوبة الحصول على المعطيات السّوسيولوجيّة المتحكمة في إنتاجه بسبب علاقته بحقب تاريخيّة موغلة في القدم لا تتوفر عنها حاليا أي معلومات سوسيولوجيّة، وأمام هذا الوضع وجد عبد الحميد بورايو نفسه في حاجة ملحة إلى العودة إلى الدّراسات الميثولوجيّة والأنثروبولوجيّة والشّكلانيّة والبنيويّة، والتّي قدمت نتائج مهمة في محاولة الاقتراب من الأشكال السّرديّة التّراثيّة.[1]

وركوحا إلى ما سلف، فإنّا نتساءل عن مدى تأثير التّوجه الحداثي في دراسة السّرد الشّعبيّ لدى بورايو؟ وهل استطاع أن يختط لنفسه معالم مشروع نقدي؟ ما هي مواصفات ذلك المشروع في عمومه؟ وما هي مستويات الخطاب النّقدي عند بورايو؟ هل اقتصر على الممارسة التّطبيقيّة فحسب؟ أم أنّه أدرك ضرورة التّأصيل للمناهج وعرض أسسها على المستوى النّظري والتّرجمي؟ ما هي أهم الإشكاليات التّي طفحت على خطابه؟ وكيف تعامل مع المناهج النّقديّة الغربيّة؛ أ بوعي أم أسقطَها على النّصّ إسقاطا آليا؟

إنّنا نفترض مبدئيا أنّ النّاقد بورايو على وعي بضرورة تضافر التّأصيل النّظري والعرض التّرجمي بالممارسة التّطبيقيّة المنهجيّة، إذ أن تعدد مستويات الخطاب النّقدي لدى النّاقد تشي ببعض ذلك، كما نفترض أيضا وعي النّاقد بضرورة تلافي الإسقاط الجبري لآليات المناهج الغربيّة على النّص العربيّ ذي الخصوصيّة الفنيّة والمرجعيّة، المغايرة لخصوصيّة النّص الغربيّ ضرورةً، وهذا بفضل طروحاته الواعيّة بذلك، ومقارباته الدّقيقة التّي تراعي سلطة النّص، بعيدا عن التّعسف في التّطبيّق.

2. توصيف المشروع : لقد كان من آلاء التّوجه النّقدي الجديد لدن النّاقد بورايو –على النّقد الجزائري– أن تُوّج بظهور منجزه النّقدي الأكاديمي (القصص

الشّعبيّ في منطقة بسكرة) 1978، وهو أوّل عمل نقدي حداثي في النّقد الجزائري المعاصر، الذي لم يعهد الآليات الإجرائيّة النّصانيّة التّي توسلها النّاقد في معالجة نصوص القصص الشّعبيّ، والمتراوحة في مجملها بيّن آليات المنهج الشّكلاني والبنيوي، والبنيوي التّكويني، والبنيوي الأنثروبولوجي، والسّيميائي السّردي، وقد اكتفى بنعت منهجه بالبنيوي فحسب، وذلك لأنّ المناهج النّسقيّة في الحواضن النّقديّة العربيّة لم تستبِن سبيلّها بعدُ، آنذاك.

لقد شكلت دراسة القصص الشّعبيّ في منطقة بسكرة – والتّي تأخر نشرها إلى سنة 1986– عتبة المشروع النّقدي لعبد الحميد بورايو، والقائم في مجمله على إفرازات الحداثة الغربيّة في معالجة النّصوص الأدبيّة، وقد راكم بعد منجزه ذاك عددا مهما من المقاربات المنهجيّة لنصوص سرديّة أغلبها نصوص تراثيّة شعبيّة جُمعت في كتب، هي:*

- الحكايات الخرافيّة للمغرب العربيّ، دراسة تحليليّة في معنى المعنى
- منطق السّرد، دراسات في القصّة الجزائريّة الحديثة.
- البطل الملحمي والبطلة الضحيّة في الأدب الشّفوي الجزائري.
- التّحليل السّيميائي للخطاب السّردي، دراسة لحكايات من ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة.
- المسار السّردي وتنظيم المحتوى، دراسة سيميائيّة لنماذج من حكايات ألف ليلة وليلة.
- الأدب الشّعبيّ الجزائري، دراسة لأشكال الأداء في الفنون التّعبيريّة الشّعبيّة في الجزائر.
- البعد الاجتماعي والنّفسي في الأدب الشّعبيّ الجزائري.

ومن خلال هذه المراكمة المعرفيّة والتّطبيقيّة المنهجيّة، بدأت ملامح المشروع النّقدي تتضح، وقد زاد هذا الوضوح بالمنجزات الموازيّة لممارسات بورايو التّطبيقيّة، ونقصد بذلك العدد الكبيّر من التّرجمات المحتذيّة لمكتسبات المنهجيّة

الغربيّة، خاصة السّيميائيّة، فضلا عن إشرافه على سلسلة المناهج، وهي عبارة عن مؤلفات نقديّة لباحثين جزائريين يرومون تحديث الخطاب النّقدي الجزائري بالوسائل والأدوات المنهجيّة الخاضعة للصرامة العلميّة، يضاف إلى ذلك ترؤسه لرابطة السّيميائيين الجزائريين (1998)، وإسهاماته في إنشاء المجلات وعقد الملتقيات.

تنطوي هذه الفعاليّة المكثفة والمتعددة المستويات من مشروع النّاقد عبد الحميد بورايو على بؤرة "المنهج الحداثي" وآلياته وجهازه المصطلحي، وهو ما يتيح تحديث الخطاب النّقدي، وتحديث الدّراسة الأدبيّة، كيما تستميز عن الدّراسات الانطباعيّة المتهالكة، والمتحررة من الصرامة العلميّة المفترضة في كل عمل جاد.

وتأسيسا على تلكم الرؤيّة، فإن مشروع النّاقد بورايو يراهن على المنهج وفق تصورين هما:

– إحداث قطيعة ابستيمولوجيّة مع الدّراسات الانطباعيّة والسّياقيّة الخالصة والتّي يرى أنها تتنافى أو لا تساير مستجدات الحقول المعرفيّة المعاصرة –على الأقل– كاللسانيات والسّيميائيات والأنثروبولوجيا... وقد بدا طرحه هذا واضحا في معرض تقديمه لكتاب (البنيّة السّرديّة في النّظريّة السّيميائيّة) لصاحبه رشيد بن مالك، حيث رأى أن نقلة نوعيّة تلوح بأفق الخطاب النّقدي الجزائري بفضل جهوده وجهود حاملي لواء التّجديد النّقدي، ومؤلفاتهم التّي "سوف يكون لها عميق الأثر في تطوير البحث الأدبيّ ونشر الوعي العلمي بأهميته وبآلياته، وربط جسوره بمختلف مستوياته ومناهجه في البلاد العربيّة وفي العالم، لعلنا بذلك نستطيع أن نحقق ما نصبو إليه من إحداث قطيعة مع التّعاملات الانطباعيّة الاختزاليّة والتّبسيطيّة للآثار الأدبيّة، والتّي مازالتّ تستلهما كثير من الرسائل الجامعيّة والكتابات والأبحاث ودروس تحليل النّص الأدبيّ"[2].

– إحداث نقلة نوعيّة في التّعامل مع المسرودات خاصة التّراثيّة والشّعبيّة، وذلك في إطار المسعى الحداثي، وفي إطار علمنة الدّراسة الأدبيّة، وهو ما يسهم في فهم

تلك المسرودات الضاربة في عمق الذاكرة الجماعيّة بعين معاصرة من جهة ويسهم كذلك في فتح أفق واسع لتطوير الدّراسات الشّعبيّة العربيّة، وهذا ما عبّر عنه النّاقد بقوله: "إنّ معالجتنا لمواد الحكايات الشّعبيّة تسعى إلى تجسيد ثراء طرق تحليل الخطاب الأدبيّ الشّعبيّ عن طريق تقديم معالجات متنوعة، الغرض منها توضيح المفاهيم وتأصيلها، وتهيئة الظروف التّي تسمح بتراكم العمل التّطبيّقي والمنهجي، من أجل تحقيق مشروع معرفي يسهم في تحقيق حداثة الدّراسات الشّعبيّة العربيّة باعتبارها حلقة هامة من حلقات الثّقافة العربيّة".[3]

3. مستويات الخطاب النّقدي عند بورايو : إنّ المشروع النّقدي –في تصورنا– لا تتحدد كينونته إلا إذا توافرت له أسباب التّحقق؛ والمتمثلة في أدنى حدودها في خطابيّن هما؛ خطاب الممارسة النّظريّة أو خطاب التّأسيس والتّأصيل، وخطاب الممارسة التّطبيقيّة، مع الاستمراريّة، وقد يضاف إلى ذينك خطاب التّرجمة وخطاب التّأليف القاموسي وخطاب النّقد والتّقويم في الحدود المثلى للمشروع النّقدي.

إنّ أهم ما يسم الخطاب النّقدي المعاصر قيامُه على الضبط المنهجي واتكاؤه على السّند العلمي، واستناده إلى التّصور الفلسفي، وتجلّيه بعد كل ذلك عبر جهاز مصطلحي مفهومي، وهو ما جعله خطابا مفارقا للخطاب النّقدي التّقليدي، وفي ظل هذا المقتضى لم يكن للخطاب النّقدي العربيّ سوى احتذاء مكتسبات الخطاب النّقدي في مظانه الغربيّة، خاصة في ظل معطيات الراهن الثّقافي العربيّ الحديث والمتّسم بالعطب والتّلكّؤ والتّقهقر وغياب التّنظير، فكان من الطبيّعي أن ترجح كفة التّلقي والاستهلاك.

وأمام هذا الوضع المعقد لمنظومة الخطاب النّقدي المعاصر، كان لزاما على النّاقد الواعي أن يضع في الحسبان متلقي خطابه النّقدي، فيهيئه أولا بوضعه في سياق النّظريّة، وعرض المرجعيّة المنهجيّة، وبيّان الأسس المعرفيّة، وتحديد التّخوم المفهوميّة، كيما يتسنى له بعد ذلك فهم إجراءات الممارسة التّطبيقيّة. وهذا ما لم يغب عن ذهن النّاقد بورايو الذي عادة ما يصدّر ممارساته النّقديّة بإطار نظري

وعرض منهجي يكون بمثابة دليل Guide للمتلقي، وهذا المتلقي هو في العادة من فئة الطلبة والباحثين والأساتذة غالبا، لأن الخطاب النّقدي المعاصر بمنظومته قد تسبب في إقصاء القارئ العادي؛ أي القارئ غير المتخصص، ولذا عادة ما يصرح بورايو بأن خطابه النّقدي موجّه بالدّرجة الأولى للطلبة والأساتذة، يقول: "لقد سمحت لي هذه التّجربة بلفت انتباه طلبتي وزملائي الأساتذة إلى أهميّة الأدب الشّعبيّ عندما يدرس بوسائل منهجيّة وعلميّة متطورة"[4].

وبما أن هذا الخطاب النّقدي مستمدٌ أصوله من بيّئة غير بيّئة المتلقي، استوجب هذا الخطابُ خطابًا مساوقا يفضي إلى معرفة السّياق المعرفي والثّقافي الذي انبثقت عنه النّظريّة النّقديّة، ومعرفة الأسس التّي استندت إليها في اختطاط المنهج وآلياته ولذا يقوم هذا الصنف من الخطاب النّقدي على "تأصيل النّظريّة من خلال ردها إلى أصولها وروافدها العلميّة، وعرض أسسها التّي قامت عليها، هدفه في ذلك التّعريف بها وتقريبها من أذهان القراء والمتعلمين وممارسي النّقد على حد سواء وتيسير سبل استيعابها لديهم عبر تحديد منطلقاتها وضبط أبعادها وأهدافها"[5].

ولا شك أن النّاقد بورايو من النّقاد المغاربيّين الأوائل الذين كرسوا جهودهم لتحديث آليات مقاربة النّص السّردي بصفة خاصة وتحديدها، وذلك عبر إدخال النّظريات الغربيّة إلى ساحتنا النّقديّة، وبخاصة السّيميائيّة، سواء من خلال محاضراته التّي دأب على إلقائها بمدرجات الجامعة منذ الثّمانينيات، ومن خلال تلك المقالات والمداخلات المنهجيّة المضبوطة التّي ما فتئ يسهم بها في الملتقيات والمناسبات العلميّة، وكذا من خلال مؤلفاته –على تفاوت في درجة الخطاب التّأسيسي التّأصيلي– ويُعدّ مؤلفه (منطق السّرد) 1994 إنجازا مهما في التّأسيس المنهجي لتجربة نقديّة واعدة، ليس من خلال محاولة ضبط آليات إجرائيّة تساعد على تيسير سبل تحليل النّصوص السّرديّة فحسب، بل أيضا من خلال محاولة تأصيلها والتّأسيس لها، عبر إرجاعها إلى أصولها العلميّة التّي انبثقت عنها ومراعاة سياقها الثّقافي والمعرفي الذي أنتجها[6].

وللنهوض بهذه المهمة، أفرد بحثا مطولاً في القسم النّظري من كتابه (منطق السّرد) للحديث عن البنيّة التّركيبيّة للقصة، قدم فيه رصدا منتظما لجهود دارسي السّرد في الغرب وطروحاتهم حول بنيّة النّص السّردي، وتأتي أهميّة نقل التّجربة النّقديّة البنائيّة للسرد "من حيث إنها أعادت النّظر في طبيّعة ممارسة تحليل الأعمال الأدبيّة استنادا إلى معطيات علميّة، خاصة بعد التّطور الكبيّر الذي عرفته الدّراسات اللغويّة واللسانيّة الحديثة"[7]

كان ذلك من خلال عرض الأسس النّظريّة للدراسات السّرديّة الحديثة بدءا بطروحات فلادمير برورب Vladimir Propp حول التّحليل الوظائفي، ونقده لجهود سابقيه ممن كانت لهم محاولات حول تحديد العناصر العضويّة للقص، أمثال جوزيف بيّديي Joseph Bedier وفسلوفسكي وفولكوف، ليؤسس لمفهوم الوظيفة Fonction بِعدِّها قيمة أو عنصرا ثابتا في السّرد، وهي فعل الشّخصيّة منظور إليه ضمن حبكة القصّة، بغض النّظر عن أعيان شخوص الحكي التّي تعتبر عناصر متغيرة لا يعتد بها في استنباط العناصر البنيويّة الثّابتة والمتكررة في الحكايات الخرافيّة.

ليعرّج الباحث بعد ذلك على طروحات الدّارسين والمنظّرين الذين اهتمّوا ببنيّة القصّة انطلاقا من منهج بروب، أمثال ألان دندس الذي حاول تطبيّق منظور بروب على قصص هنود أمريكا الشّماليّة مع بعض التّعديلات، والاصطلاحات المغايرة وكذا ليفي ستروس الذي كشف عن منهج مواز لمنهج بروب في تحليل الأسطورة. والأمر نفسه مع الذين سعوا إلى تعميم نتائج منهج بروب قصد الحصول على نموذج عام يحكم كافة أشكال السّرد، على نحو مقترح كلود بريمون، وغريماس وتودوروف[8]. هذا وقد قدّم بورايو عرضا مفصلا لأسس نظريّة السّرد لدى هؤلاء الدّارسين على اختلاف منظوراتهم ومرجعياتهم.

هكذا يوفّر بورايو من خلال هذا الصنيع؛ أي من خلال هذا الخطاب التّأسيسي التّأصيلي مادة معرفيّة وحصيلة نظريّة وأدوات منهجيّة إجرائيّة، تضع المتلقي

العربيّ وجها لوجه مع مستجدات السّاحة النّقديّة الغربيّة/العالميّة، وتأخذ بيّده إلى إحداث قفزة نوعيّة في مواجهة النّص العربيّ بكفاءة وفعاليّة إجرائيّة.

تبقى الإشارة إلى أنّ الخطاب النّظري التّأسيسي والتّأصيلي لدى بورايو يبقى قليلا إذا ما قورن بالممارسة التّطبيقيّة لديه، إذ غالبا ما يصدّر أعماله النّقديّة بمدخل منهجي يعرض فيه الخطوات الإجرائيّة المتبعة ليلج مباشرة باب النّصوص السّرديّة مسلحا بالعدة الإجرائيّة التّي عرضها، لكن دون تقديم عرض نظري لأسس المنهج المتبع، ولعله رأى أنّ ما قدّمه في كتابه (منطق السّرد) من خطاب نظري ما يشكل أرضيّة منهجيّة ومرجعيّة صالحة لعموم منجزاته النّقديّة، فكفاه ذلك رتابة التّكرار.

توسيعا لمدارات المعرفة النّقديّة، وتجسيدا لثراء طرق معالجة النّص السّردي العربيّ وتنزيلها إلى مجال المعاينة والتّحقّق، سعى عبد الحميد بورايو إلى إقامة خطاب نقدي موازٍ للخطاب النّظري، وهو خطاب الممارسة التّطبيقيّة، وذلك درءًا لانفصام العرى بيّن الخطابيّن وتحقيقا للتكامل بيّنهما.

لقد استطاع النّاقد بورايو أن يقدم معالجات نقديّة تطبيّقيّة لعشرات النّصوص السّرديّة منها التّراثيّة كحكايات الليالي، وكليلة ودمنة، والحكايات الشّعبيّة والخرافيّة، والأسطوريّة والمغازي... ومنها الحديثة كالقصص القصيرة والروايات، هذا التّنوع النّصوصي السّردي أردفه النّاقد تنوعا منهجيا أثرى طبيّعة مساءلة النّصوص السّرديّة مساءلة معرفيّة وسوسيو–ثقافيّة، وأسهم في استبطان البنى النّصيّة والكشف عن العلاقات المتحكمة فيها، وربطها رمزيا بسياق الانتاج والتّداول، وهو في كل ذلك لم يسلم من الوقوع في بعض إشكاليات المنهج، مع حرصه تفاديها قدر المستطاع، كما سيأتي الحديث عن ذلك.

وقد أشاد بممارسات بورايو المنهجيّة كثيرٌ من النّقاد والدّارسين؛ من ذلك ما أشار إليه النّاقد العراقي عبد الله إبراهيم بقوله: "يندرج عبد الحميد بورايو في النّخبة الجادة من دارسي المأثورات الشّعبيّة في شمال إفريقيا، فقد توسع في

دراساته الشّعبيّة ونجح في توظيف المناهج النّقديّة في تحليل الآداب الشّعبيّة. ولم ينغلق على منهج نقدي كما لم يحبس نفسه في رؤيّة نقديّة واحدة، إنّما راح يتوسع خلال حياته الأكاديميّة والنّقديّة في الاستفادة من المناهج بدايّة من المناهج السّياقيّة وصولا إلى المناهج الدّاخليّة التّي تسعى إلى استنباط أشكال المعنى الأدبيّ. وفي كل ذلك وجدته باحثا متميزا يستحقّ الدّرس"[9]، كما نوه بجهده أحمد شريبط، وعَدَّه "من أهم الباحثين الجزائريين الذين يمتلكون أدوات حداثيّة وأصيلة، وقد يشهد المستقبل رصانة وعمق كتاباته النّقديّة، وجهوده المضنيّة التّي يبذلها من أجل إرساء أصول المناهج النّقديّة الحديثة في فكرنا النّقدي، خصوصا في ميدان دراسة التّراث الشّعبيّ الجزائري والعربيّ على السّواء"[10].

وعموما، فقد أغنى النّاقدُ السّاحةَ النّقديّة الجزائريّة ومعا العربيّة بحصيلة مهمة من الممارسات النّقديّة المحتكمة في مجملها إلى مكتسبات المعارف الإنسانيّة المعاصرة، واستثمارها في مخاتلة النّصوص السّرديّة، خاصة الشّعبيّة التّي عادة ما تلقى إعراضا صُراحا في الأوساط العربيّة، وهو بذلك الصنيع استطاع أن يوجه اهتمام الباحثين إليها، ويلفت انتباه الدّارسين إلى نجاعة المقاربات المنهجيّة والنّتائج المحققة من خلالها.

يضاف إلى المستويين السّابقين (النّظري والتّطبيّقي) مستوى آخر أخذ حيزا معتبَرا في مشروع بورايو، ونقصد (خطاب التّرجمة)، حيث تتنزل الأعمال التّرجميّة التّي أنجزها الباحث ضمن الجهود الراميّة إلى مدّ جسور التّواصل مع ما ينتجه الآخر من معارف ومناهج لمواجهة النّصوص السّرديّة بنيويا وسيميائيا وثقافيا... والتّرجمة قبل كل شيء نشاط تثاقفي وفعل تواصلي، ورافد معرفي يسعى إلى توطين المعرفة لغويًا، وتوفير بعض شروط التّلاقح الفكري والتّفاعل الحضاري.

يأتي خطاب التّرجمة والتّعريب عند بورايو استجابة للمتغيرات الابستيمولوجيّة المتواترة والتّي شهدها الفكر النّقدي الغربيّ خلال النّصف الثّاني من القرن

الماضي، حيث دعته تلك المتغيرات المتسارعة إلى ضرورة مسايرتها درءًا لمساوئ الانغلاق والتّقوقع والجمود الفكري وذلك عبر التّأسيس والتّأصيل تارة وعبر الممارسة التّطبيقيّة تارة أخرى، وعبر التّرجمة طورا آخر، وهذه الأطر الثّلاثة هي ما شكّلت منتظمة توليفة مشروعه النّقدي.

لقد راكم عبد الحميد بورايو منجزا تُرجميا مُهما، استمدّ قيمته من طبيّعة المادة المعرفيّة المنقولة، والمتمثلة أساسا في الدّراسات السّرديّة، والسّيميائيات، وهي فروع معرفيّة لقيت رواجا في محيط التّلقي العربيّ، وعرفت احتفاءً واسعا على الصعيد العالمي. وقد ترجم بورايو مقالات مهمة شكّلت مداخل معرفيّة للقارئ العربيّ في تلقيه لتلك الفروع الدّراسيّة، نقلها عن أقطابها وروادها ومُشايعيها، فقد ترجم لكل من: غريماس، جوزيف كورتيس، فرنسوا راستي، دانيال باط، جاب لينتيفيلت، جوزيب بيّزا كومبروبيّ، استيفان بانو، برونو بتلهايم، إدغار ويبيّر ملتنسكي، وجمال الدّين بن الشّيخ...

وقد كانت حصيلة ذلك الجهد التّرجمي جملة من المؤلفات التّي أثرت المعرفة النّقديّة والدّراسة السّرديّة في الوطن العربيّ، تمثلت فيما يأتي:

- مدخل إلى السّيميولوجيا (نص/ صورة)، دليلة مرسلي وآخرون، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1995.

- الروايّة، مدخل إلى المناهج والتّقنيات المعاصرة للتحليل الأدبيّ، برنار فاليت، دار الحكمة، الجزائر، 2002.

- الكشف عن المعنى في النّص السّردي (ثلاثة أجزاء)، غريماص، كورتيس باط، دار السّهل، الجزائر، 2008.

- مدخل إلى التّناص، نتالي بييقى-غروس، دار نينوى، دمشق، سوريا 2012.

- السّيميائيات السّرديّة، نمذجة سرديّة، الأشكال السّرديّة، وظائف العنوان ج.لينتيفيلت، ج.كورتيس، ج.كومبروبيّ، دار التّنوير، الجزائر، ص 2013.

- النّظريّة السّيميائيّة، مسار التّوليد الدّلالي، غريماص، كورتيس، راستس باط، دار التّنوير، الجزائر، 2013.

- السّرديات التّطبيقيّة، مقاربات سيميائيّة سرديّة، مجموعة كتاب، دار التّنوير الجزائر، 2013.

- المنهج السّيميائي، الخلفيات النّظريّة وآليات التّطبيّق، دار التّنوير، الجزائر 2014.

- أنثروبولوجيا العولمة، مارك أبيّليس، دار نينوى، دمشق، سوريا، 2017.

4- إشكاليّة المنهج النّقدي في الممارسة التّطبيقيّة لدى بورايو: إنّ أبرز إشكاليّة طفحت على الخطاب النّقدي عند بورايو هي تلك المتعلقة بالانزلاق إلى المرجعيّة السّياقيّة الاجتماعيّة تحديدا، وهو يتعامل مع النّص تعاملا نسقيا، مع التّصريح بمنهج الدّراسة على أنّه بنوي مثلا، وهو ما ولّد شيئا من التّعارض بيّن الطرح النّظري والممارسة التّطبيقيّة، ففي كتابه (القصص الشّعبيّ في منطقة بسكرة) ينظر إلى النّشاط الفني/النّص السّردي على أنّه تحقق لبنيّة كامنة، ويعلن في المقدمة أن منهج الدّراسة "بنيوي"، لنكتشف من خلال الممارسة التّطبيقيّة خرقا واضحا لمبدأ المحايثة، من خلال الإحالة على المجتمع الجزائري والبسكري خصوصا، وهو ما تأباه البنيويّة بشدة، ومن نماذج ذلك الانزلاق قوله: "لا شك أن لتداول مثل هذه الحكايّة في مجتمع بسكرة صلة باستمرار نظام الأبوة في التّواجد في المجتمع البسكري، مثلما أشرنا في بدايّة هذا البحث، وقد ضمن استمراره بشكل يشبه النّمط الأصلي لهذا النّظام استمرارَ تواجد العلاقات الإقطاعيّة على مستوى القيم (الأيديولوجيّة) في هذا المجتمع القائم على العلاقات الزراعيّة والحرفيّة البسيطة، حيث مازال الأب يمارس سلطته المطلقة على العائلة الكبيّرة، وحيث الأسرة بمدلولها الواسع مازالتّ هي النّظام الأساسي الذي يقوم عليه المجتمع وبذلك تلعب حكايّة (ولد المحقورة) دورا وظيفيا في تثبيّت وجود نظام الأبوة القرابي وتبريره"[11].

فواضح، إذن، أنّ صرف الجلي إلى الخفي عن ظاهر النّص، يشكل خرقا جليا لأساس المحايثة في المنهج البنيوي، الذي يقرر أنّ النّص كلّ مكتف بذاته. وكلّ ذلك مردّه رواسب النّقد السّوسيولوجي، الذي كان اعتمده إلى حدّ القناعة خلال السّبعينيات، أي أوّلَ عهده بالممارسة النّقديّة.

غير أنّ النّاقد صار ينتقل –في مقارباته اللاحقة– من النّسق إلى السّياق بوعي كبيّر حيث لم تعد تقنعه الدّراسات البنيويّة الخالصة، ولذلك انتقل من مفهوم "النّصّ" إلى مفهوم "الخطاب"، لأنّ هذا الأخير يسمح باستيعاب الأبعاد النّصيّة والسّياقيّة جميعا. فصارت المنهجيّة العامة للتحليل عند بورايو محكومة بثلاث خطوات: التّحليل الخطي، التّحليل الدّلالي، التّفسير السّياقي المرجعي (الأبعاد الرمزيّة الإحاليّة).

إنّ وقوع بورايو في بعض الإشكاليات المنهجيّة لا ينفي الأصالةَ عن ممارساته المنهجيّة وعن مشروعه النّقدي عموما، وهو ما سنتناوله فيما يأتي.

5. التّحليل النّقدي بيّن صرامة المنهج وخصوصيّة النّص: يتأرجح كل تحليل نقدي منهجي بيّن إكراهين؛ الخضوعِ لسلطة المنهج؛ وحينئذ تغدو الممارسة ميكانيكيّة، ويغدو النّصُ حقلَ تجارب، ووسيلة لإثبات جدوى المنهج وإن بشكل إسقاطي وقسري، وأمّا الإكراه الثّاني، فيتمثل في خصوصيّة النّص التّي قد تتعارض وإجراءات المنهج، وحينئذ تقتضي الممارسة النّقديّة وعيا بأولويّة مراعاة خصوصيّة النّص على حساب المنهج لا العكس، وهذا الذي ألفيناه عند النّاقد عبد الحميد بورايو –بعد استقراء مدونته النّقديّة– إذ يقطع برأيه قطعًا أنْ "**لا طاعة لمنهج غربيّ في معصيّة النّص العربيّ**"[12] وهي رؤيّة تكاد تنسحب على كافة مقارباته، حيث عادة ما تقتضي منه خصوصيّة النّص تحويرا منهجيا يتناسب مع تلك الخصوصيّة.

إنّ هذه القناعة المنهجيّة ظلت راسخة في معظم مقارباته، وقد قادته إلى تحقيق الأصالة المنشودة في كل ممارسة نقديّة، ولذا نجده يصرّح بهذه الرؤيّة وهذه

القناعة في غير ما موضع من أعماله النّقديّة، يشير إلى ذلك في أحد كتبه قائلا: "لقد حرصنا في معالجاتنا المختلفة لخطاب الحكايّة الشّعبيّة الجزائريّة على استبعاد المفاهيم المنقولة بشكل حرفي عن الدّراسات الغربيّة، كما عملنا على تجاوز التّطبيّقات الميكانيكيّة التّي تعتمد على أدنى جهد تأصيلي وتمثيلي لهذه المفاهيم وذلك درءا للمزالق التّي تقع فيها عادة التّناولات النّقديّة الضحلة المستكينة لراحة السّهولة والكسل، المعتمدة على اجترار المفاهيم السّطحيّة المستهلكة"[13] وهي وجهة نظر ماثلة أيضا في كتابه (الحكايات الخرافيّة...) حيث "حاولتْ هذه الدّراسة أن تتجنب قدر الإمكان الاعتماد على التّطبيّق الميكانيكي والارتباط الحرفي بالطرق والمناهج الغربيّة، وعملت على الاستفادة منها حسبما تمليه ضرورة مراعاة درجة تطور الأبحاث العلميّة العالميّة في هذا الميدان، وما يتطلبه الانسجام المنهجي وكذلك طبيّعة المادة موضوع الدّراسة، دون التّقيد بطريقة باحث معيّن أو فرع وحيد من فروع الدّراسات الإنسانيّة، كما عملت على احترام خصوصيّة الخطاب الشّفوي ذي الطبيّعة الفنيّة"[14].

إنّها وجهة نظر تنم عن وعي نقدي في تلقي المناهج النّقديّة الغربيّة، وكيفيّة التّعامل معها، إذ لا ضير أن تكون المناهج غربيّة المنبت/المنشأ، لكن شريطة أن لا تتسلط على النّص، فهناك خصوصيّة ينبغي أن تراعى وتُقدَّم من حيث الأولويّة وهذا الذي سنكشفه في بعض النّماذج التّي تبيّن كيفيّة تعامل بورايو مع الإجراءات المنهجيّة وتكييفها وفق ما تقتضيه خصوصيّة النّص المعالج.

1.5 خصوصيّة التّحليل الوظائفي عند بورايو:

لقد عُني عبد الحميد بورايو بالتّحليل الوظائفي الذي أسسه فلادمير بروب، ولم يبرحه في مقارباته النّصيّة كلّها، إذ شكّل هذا التّحليل معبرا شكلانيا يقود إلى منتهى فحص المحتوى غير أنّ هذا التّحليل أخذ طابعا خاصا مع بورايو، حيث لم يتقيد بحرفيّة إجراءاته، وصرامة أدواته، وإنما أخضعه لثلاثة منطلقات؛ خصوصيّة النّص ومعطياته، ووجهةِ نظره الخاصة ووجهةِ نظر الدّارسين الغربيّين الذين انتقدوا

نموذج بروب وطوّره، أمثال: كلود ليفي ستروس وغريماس، وكلود بريمون، وهذا ما حقّقَ أصالةَ التّحليل الوظائفي عند بورايو، وأبان عن كيفيّة مواجهته لإشكاليّة الميكانيكيّة المنهجيّة، وتلك الأصالة أو الخصوصيّة نلمسها فيما يأتي:[15]

أوّلا: لم يتقيد النّاقد بالتّسلسل والتّدرج الوظائفي الذي حصره بروب في إحدى وثلاثين وظيفة، وإنما قام باستخراج الوظائف وفق ما تمليه سلطة النّص ومعطياته فلم يلتزم بعددها (31 وظيفة)، ولم يلتزم بترتيبها، ولم يلتزم بطبيّعتها أيضا، وذلك لأنّ الوظيفة هي "ما تقوم به الشّخصيّة من فعل محدد من منظور دلالتّه في سير الحبكة"[16]، وفعل الشّخصيّة متفاوت من حكايّة إلى أخرى، فمن البدهي أن تتغير طبيّعة الوظائف، ويتغير عددها، ويتغيّر ترتيبها. فالوظائف التّي استنبطها بروب تنطبق على المائة حكايّة التّي تناولها، وبناؤها –مقارنة مع غيرها من الحكايات الخرافيّة Les Conte merveilleux غير الروسيّة– شبهُ ثابت ولا يُقطع بثباته وهذا وجهٌ من أوجه الوعي النّقدي في التّعامل مع المنهج الغربيّ.

ثانيا: قام النّاقد برصد الوظائف من خلال مراعاة وجهة نظر البطل مثلما فعل بروب وكذلك مراعاة وجهات نظر الشّخصيات الأخرى المشاركة في أحداث القصّة، وهو في ذلك يعمل بانتقاد بريمون لبروب؛ ما يعني أنّه تصرّف في خطاطة وظائف بروب المقدسة، وهو في ذلك على وعي وبيّنة من صنيعه، لأنّ (الوظيفة Fonction) مرتبطة بفاعلها، وليس البطل وحده فاعلا في الحدث الحكائي، وهذا ما غاب عن رؤيّة بروب التّنظيريّة، ولم يغب عن رؤيّة بورايو، حيث يقول: "لقد استعنا بالتّرسيمة الخطيّة البروبويّة، لكننا تعاملنا معها بحريّة، بحيث راعينا وجهات النّظر المتعلقة بالشّخوص الأخرى المشاركة في الحدث"[17].

ثالثًا: حاول النّاقد الاستفادة من تأملات غريماس للنموذج الوظائفي والبدائل المنهجيّة المقترحة من قِبله، ومِن استثمار التّعاقدات بيّن الشّخوص، والاختبارات في عمليّة التّحليل عادّاً الاختبارات وحداتٍ وظيفيّة.

رابعا: استثمر النّاقد منطق الاحتمالات السّرديّة التّي تواجه البطل في مساره مثلما حددها كلود بريمون وأسقطها على ما يسم الاختبارات التّي يمرّ بها البطل فتوصلَ بذلك إلى تجليات متباينة لتلك الاختبارات؛ منها الفاشل، ومنها الموجب السّالب، «اختبار تمهيدي فاشل، اختبار إيجابيّ أوّل، اختبار رئيسي إيجابيّ، اختبار إضافي سلبيّ، اختبار إضافي إيجابيّ» وذلك قياسا على ما لاحظه بريمون على المسار السّردي للبطل، والذي لا يتخذ اتجاها واحدا قارا في كل الحكايات، وهو ما حدا به إلى إضفاء شيء من المنطقيّة على النّموذج الوظائفي وعلى كل تحليل يسعى إلى تعقب المسار السّردي لشخوص الحكي، حيث يرى بريمون في كتابه (منطق القصّة Logique du récite) أنّ تتابع الوظائف في النّموذج البرويّ يخضع لنوع من التّعسف والحتميّة، فوجود وظيفة ما يستدعي بالضرورة وظيفة أخرى؛ وبعبارة أخرى، وقع حدث ما، لا بد أن تستتبعه نتيجة معلومة مسبقًا، وهذا ما لا يقبله المنطق، لذلك يرى بريمون أنّ الصواب يكمن في عكس ما ذهب إليه بروب فحصول النّتيجة مشروط بالوظيفة السّابقة لها[18]، وحتى نكون عمليين أكثر نضرب هذا المثال: لدينا المتتاليّة البسيطة الآتيّة: (وقوع إساءة، تدخّل البطل نجاح)، فوقوع الإساءة حسب بروب يستدعي تدخّل البطل، وتدخل البطل يؤدي إلى نتيجة حتميّة هي النّجاح، بيّنما يرى بريمون أنّ الوظيفة الأخيرة من هذه المتواليّة تنفتح على احتمالين، إمّا النّجاح وإمّا الفشل، ومن ثم فإنّ النّتيجة تكون مشروطة بالوظيفة السّابقة وليس العكس فالنّجاح أو الفشل مشروط بتدخّل البطل. وعلى هذا الأساس وضع بورايو نصب عينيه الاحتمالات التّي تواجه البطل في مساره السّردي من نجاح أو فشل. ومثل هذا الصنيع النّقدي هو ما يؤسس لأصالة مشروعه النّقدي، وطريقته الخاصة في مواجهة إشكاليّة المنهج.

خامسا: استثمر بورايو بعض مقولات العالم الأنثروبولوجي كلود ليفي ستروس في تحليله للأسطورة، من ذلك مبدأ: (التّضاد، الوساطة، الاستبدال) وقد أسهمت

هذه الآليّة في الكشف عن كيفيّة تنامي المسارات السّرديّة عبر الأدوار الغرضيّة (Les rôles thématique).

ففي كل الوحدات الوظيفيّة يقوم النّقاد باستخراج التّضادات المنبثقة عن الأدوار الغرضيّة ضمن كلّ وظيفة، وتدخّل الحد الوسيط الذي يؤدي إلى استبدال أحد الطرفين المتضادين، ممّا يؤدي إلى ظهور وظيفة أخرى تحمل طرفين متضادين ليتدخل حدّ وسيط ... وهكذا، ولا بأس أن نوضّح ذلك بمثال من الحكايّة، حيث تبرز وظيفة (خضوع) من خلال التّضاد القائم بيّن العفريت والسّاحرين وهي علاقة (مسيطر/خاضع) وتسمح صفات الملك بما هو غير خاضع وغير مسيطر في الوقت نفسه بقيامه بدور الوسيط، فيقوم بإطلاق سراح العفريت بعد أن أنّبه ضميره، وهو ما يؤدي إلى ظهور وظيفة (إنقاذ) القائمة على التّضاد بيّن (محرِّر/محرَّر) أي بيّن الملك والعفريت ويدخل حدّ وسيط وهكذا.

هكذا تكشف الممارسة التّطبيقيّة عند بورايو عن كيفيّة تعامله مع إشكاليّة المنهج، حين تصطدم صرامة المنهج بخصوصيّة النّص.

2.5 إجراء المقارنة وآليّة استنباط العناصر المسقطة من الحكايّة: لقد سعى عبد الحميد بورايو في كثير من مقارباته النّقديّة إلى محاولة استنباط العناصر البنيويّة الثّابتة في صنف قصصي معين، كالحكايّة الخرافيّة مثلا، وذلك على طريقة فلادمير بروب، فنجده يجري دراسة مقارنة بيّن مجموعة من الحكايات بغيّة رصد الثّوابت والمتغيرات، والحالات والتّحولات، غير أن الإشكاليّة التّي كانت تواجهه تمثلت في وجود عناصر ثابتة في بعض الحكايات وغيابها في حكايات أخرى من الصنف القصصي نفسه، ما اضطره إلى اصطناع طريقة منهجيّة تمكنه من رصد العناصر البنيويّة الثّابتة في الحكايات جميعها، وقد استعار هذه الطريقة أو الآليّة المنهجيّة من طريقة ليفي ستروس في تعامله مع الروايات المتعددة للأسطورة الواحدة، وتصديه لتلك الروايات بواسطة إجراء المقارنة بغرض استنباط العناصر الثّابتة المكونة لبناء الأسطورة، على اعتبار أن بعض تلك العناصر تكون حاضرة

في روايّة ما، وغائبة عن روايّة أخرى، فيسدّ غياب عنصر ما في الأولى، بحضوره في الثّانيّة، على النّحو الآتي:

الروايّة الأولى للأسطورة ــ1 2 ؟ 4 ؟ ؟ 7 8

الروايّة الثّانيّة للأسطورة ــ ؟ 2 3 4 ؟ 6 ؟ 8

الروايّة الثّالثّة للأسطورة ــ 1 ؟ ؟ 4 5 ؟ 7 8

الروايّة الرابعة للأسطورة ــ1 2 ؟ ؟ 5 ؟ 7 ؟

وبالإمكان أن نمثل لما قام به بورايو في تحليله للحكايات الخرافيّة، وفق هذا النّحو:

حكايّة ولد المتروكة ــ أ ب ج ؟ ؟ أَ بَ جَ دَ هَ

حكايّة نصيف عبيّد ــ أ ب ج د ه أَ بَ جَ ؟ ؟

حكايّة لـــونجة ــ أ ب ج ؟ ؟ أَ بَ جَ ؟ ؟

ومن ثم تمكن من افتراض العناصر التّكوينيّة المسقطة أو الغائبة عن حكايّة ما بحضورها في حكايّة أخرى، وهو ما أتاح له استنباط الثّوابت البنيويّة والدّلاليّة في الحكايّة المنتميّة للنوع السّردي نفسه.

3.5 استنباط معيار تصنيفي عن طريق المنهج :جرت العادة في الدّراسات الشّعبيّة أن تمرّ تلك الدّراسات بثلاث مراحل: مرحلة الجمع، مرحلة التّصنيف*، ثم مرحلة التّحليل، ولعلّ عمليّة التّصنيف أن تكون عقبة كؤودا محفوفة بالمزالق نظرا للخيوط الرفيعة التّي تفصل بيّن الأنواع القصصيّة/السّرديّة، فهناك الحكايّة الشّعبيّة، وهناك الحكايّة الخرافيّة، وهناك الحكايّة البطوليّة، وهناك الأسطورة وهناك المغازي... وأمام هذا التّنوع اعتمد بعض الدّارسين في التّصنيف على طبيّعة الموضوع المعالج، أي بالنّظر إلى محتوى المسرود، غير أن هذا النّوع من التّصنيف سرعان ما تزول فاعليته لماّ يكون الموضوع نقطة تقاطع بيّن نوعين أو أكثر من تلك الأنواع القصصيّة. وهناك تصنيف آخر يعتمد دوافع أشكال التّعبيّر الشّعبيّ ومنطلقاتها، وهناك تصنيف يعتمد على وظيفة كل نوع قصصي، غير أنّ

التّداخل يظل قائما بيّنها جميعا، ولذلك ابتكر بعض الدّارسين طريقة تصنيفيّة أكثر فاعليّة، وتتمثل في الدّراسة الوصفيّة القائمة على الكشف عن البنيّة التّركيبيّة لكل نوع قصصي، ولعل أهم محاولة جادة في هذا الشّأن تُعزى إلى فلادمير بروب الذي حاول استنباط البنيّة الشّكليّة/المورفولوجيّة للحكايّة الخرافيّة، وقد تأثره في ذلك عبد الحميد بورايو.

لقد توصل بورايو من خلال المنهج البنيوي الأنثروبولوجي والإجراء المقارن إلى معيار تصنيفي للحكايّة الخرافيّة –المغاربيّة على الأقل– ويتمثل في ((بنيّة القرابة والتّحول من النّظام الأمومي إلى النّظام البطريركي))، "إنّ هذا الاتفاق بيّن النّماذج المدروسة في تمثيل هذا المسار لمصير الإنسان يؤكّد انتماءها إلى الشّكل القصصي نفسه، ألا وهو الحكايّة الخرافيّة، ويبرز ملمحا واضحا يمكن أن يعتمد في تصنيف التّراث القصصي الشّعبيّ المغاربيّ، للتمييز بيّن الحكايّة الخرافيّة وغيرها من الأشكال القصصيّة الشّعبيّة، ألا وهو تصويرها لانقلاب العلاقات الاجتماعيّة والقيم المرتبطة بها، وتبشيرها بضرورة إحلال نظام جديد على أنقاض النّظام السّابق"[19].

إنّ هذا الصنيع المنهجي يؤكّد مرة أخرى مدى أصالة التّحليل النّقدي لدى بورايو، ويكشف عن مرونة التّعامل مع المنهج، وكيفيّة تطويعه في استنباط معيار تصنيفي للقصص الشّعبيّ، بعد أن كان التّصنيف سابقا للتحليل المنهجي.

4.5 الكشف عن تنامي الوحدات السّرديّة عبر نموذج الوساطة بيّن متضادين:

لقد استثمر عبد الحميد بورايو آليّة أو نموذج الوساطة بيّن طرفين متضادين كإجراء منهجي في مختلف مستويات البنيّة التّركيبيّة للنص، فكل وحدة سرديّة محكومة في تطورها بثلاثة أسس: 1– التّضاد 2– الوساطة 3– الاستبدال، وهذا النّموذج الثّلاثي هو الذي أرساه ليفي ستروس في تحليله للأسطورة.

وكالعادة نجد بورايو يستفيد من هذا النّموذج في الكشف عن تنامي المسار السّردي عبر الوحدات السّرديّة، يقول: "مكنني النّموذج الثّلاثي المتمثل في مبدأ

الوساطة بيّن قطبيّن متناقضين من أجل تجاوز التّناقض وخلق تناقض جديد بهدف الوصول إلى التّوحيد بيّن النّقيضين أو إلغاء أحدهما، من رصد تحولات مكونات القصّة الخرافيّة، وكذلك المنطق الذي يحكمها"[20].

وقد كشف عن هذه الوساطة التّحويليّة المؤديّة إلى التّنامي السّردي، في مختلف الوحدات السّرديّة، من ذلك: **1- الوظيفة:** حيث تقوم كل وظيفة على دورين غرضيين متضادين، ليتوسطهما طرف ثالثّ يقود إلى تضاد جديد وهكذا، مثلما أشرنا في حديثنا عن خصوصيّة التّحليل الوظائفي عند بورايو:

الشّكل 1: تنامي الوظائف عن طريق نموذج الوساطة بيّن متضادين

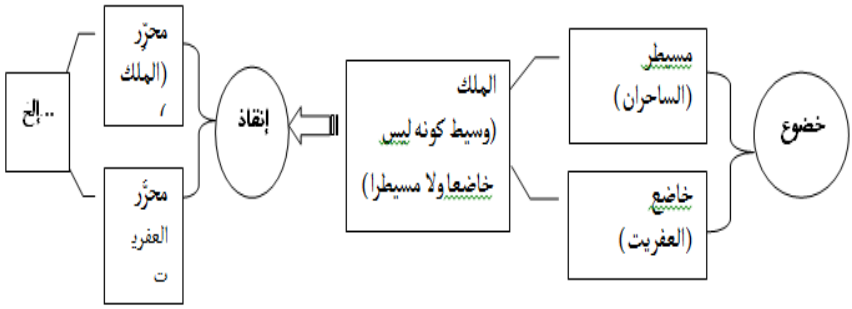

2- الوحدة السّرديّة الكبرى (النّص): وقد كشف عن هذا مثلا في حكايّة (ولد المتروكة) التّي صورت بدايتها نمطا من العلاقة الأسريّة (نظام أمومي)، ليتدخل البطل كوسيط ويغيّر مجرى تلك العلاقة إلى علاقة جديدة (نظام أبوي).

3- التّعاقد: والذي يكون بيّن شخوص الحكايّة مثلما حدده غريماس، وقد بيّن بورايو تنامي التّعاقدات عن طريق "النّموذج الثّلاثي/الوساطة" في (غزوة الخندق) حيث تقدم لنا حاكم مكة والرعيّة (مجتمع مكة) كطرفين متضادين (حاكم vs محكوم) ويظهر طرف وسيط بيّنهما ممثلا في الأعرابيّ، والذي يحمل قيما خلافيّة ذات ملمحين تجعله متصلا بكلا الطرفين، ومنفصلا عنهما في الوقت نفسه بحفاظه على كيانه المستقل، فهو ليس بحاكم، وهو بذلك يشبه مجتمع مكة، بيّنما هو يشبه الحاكم في الصفة الأخيرة (أي ليس محكوما) ويختلف عنه في الصفة الأولى[21] (أي

ليس حاكما)، لينشأ تضاد جديد بيّن حاكم مكة والأعرابيّ، ويتدخل عنصر وسيط ممثلا في الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهكذا. **4- المربع السّيميائي:** سحب بورايو نموذج الوساطة بيّن متضادين على المربع السّيميائي الغريماسي -وتضاده مستلهم من تضاد ستروس أصلا- وكمثال على ذلك نبقى مع (غزوة الخندق) حيث ينشأ تضاد بيّن مكة والمدينة كحيزين متناظرين، فالأولى بيّئة مجتمع بشري تحكمه سلطة دنيويّة، والثّانيّة بيّئة مجتمع بشري تحكمه سلطة دينيّة، ليأتي العالم الآخر كحيز يتوسط الحيزين السّابقين، بما هو بيّئةٌ إلهيّة، فهو غير خاضع لسلطة دنيويّة كما أنه ليس مجتمعا بشريا، وذلك وفق المربع السّيميائي الآتي:[22]

الشّكل 2: المربع السّيميائي وتجسيد الوساطة بيّن متضادين

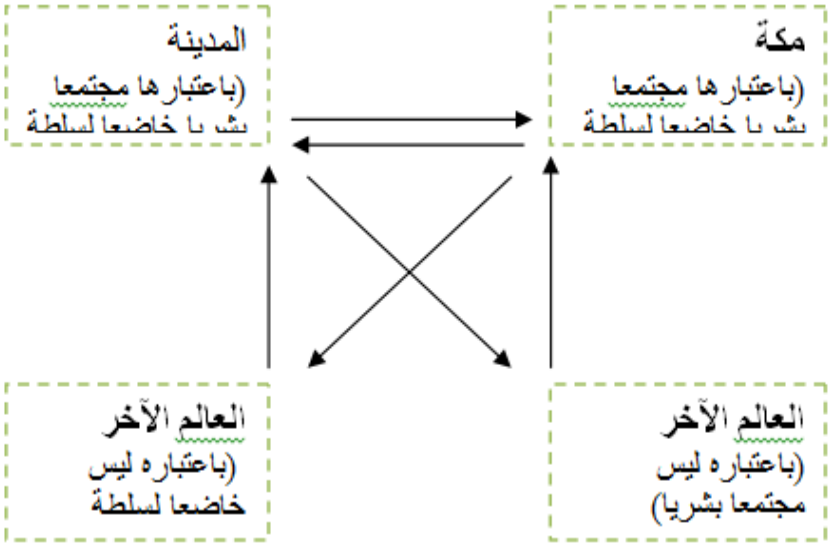

5-البناء المكاني: لقد مكّن "نموذج الوساطة" بورايو من تحديد الانتقالات المكانيّة وتحولاتها. ففي (غزوة الخندق) دائما نلاحظ في البدايّة ظهور مكة والباديّة كحيزين متضادين، بِعدِّ الأولى تخضع لسلطة ظالمة، والثّانيّة لا تخضع لمثل هذه

السّلطة. ثم جاءت المدينة كحيّز جديد يختلف عن الحيزين السّابقين، في كونها لا تخضع لسلطة ظالمة، ولكنها خاضعة لسلطة عادلة، فهي تتصل بمكة من حيث خضوعها لسلطة، وتنفصل عنها في كون هذه السّلطة ليست ظالمة، وهي تتصل بالباديّة لكونها لا تخضع لسلطة ظالمة، فهي في ذلك مماثلة لها، ولكنها تخضع لنوع آخر من السّلطة، وهو ما يجعلها مخالفة لها[23].

هذا التّعامل الإجرائي المنهجي مؤشر آخر على سعي بورايو إلى ابتكار طرق خاصة به في التّحليل، وهو ما يطبع مقارباته بطابع الأصالة، فالمناهج الغربيّة بإجراءاتها تمثل بالنّسبة له مفاتيح لولوج النّص، ليتعامل معها فيما بعد بحريّة ومرونة تامتين، فيُخضع تلك الآليات المنهجيّة لتصوره الخاص، لا لتصور المنظّر الذي أوجدها، ومن ثم فتلك المناهج وآلياتها وسيلة لا غايّة، فالغايّة دائما وأبدا بالنّسبة لبورايو هي النّص واستنطاقه والكشف عن بنياته ودلالاته ومضمراته.

6. خاتمة: لقد تمخض المشروع النّقدي لدن عبد الحميد بورايو استجابةً للمتغيرات الابستيمولوجيّة المتواترة، والتّي شهدها الفكر النّقدي الغربيّ خلال النّصف الثّاني من القرن الماضي، حيث دعته تلك المتغيرات المتسارعة إلى ضرورة مسايرتها درءًا لمساوئ الانغلاق والتّقوقع والجمود الفكري، وذلك عبر التّأسيس والتّأصيل تارة، وعبر الممارسة التّطبيقيّة تارة أخرى، وعبر التّرجمة والتّعريب طورا آخر، وهذه الأطر الثّلاثة مثلما أومأنا هي ما شكّلت منتظمة توليفة مشروعه النّقدي.

وقد راهن في مشروعه ذاك على المناهج النّقديّة الغربيّة التّي أثبتت كفاءتها في الكشف عن البنى التّركيبيّة والسّرديّة للنص، والكشف عن دلالتّه وأبعاده الرمزيّة ولعل المنهج السّيميائي أن يكون أمثل المناهج لكفاءته من جهة، ولاستيعابه للمناهج الأخرى إن دعت الضرورة إلى ذلك من جهة أخرى، خلافا للمنهج البنيوي المنغلق/المحايث.

لقد تبيّن من خلال ما وقفنا عليه، أن مشروع النّاقد بورايو محكوم بوعي نقدي دفعه لبناء استراتيجيّة معرفيّة توفّر للقارئ شروط فهم الخطاب النّقدي المعاصر ومناهجه المعتاصة، وكان ذلك من خلال ردّ المناهج والنّظريات إلى أصولها وشرح أسسها، مع توفير النّصوص الأصليّة مترجمةً، فيكون بذلك قادرا على تلقي الممارسة النّقديّة المنهجيّة لديه (أي لدى بورايو). كما تبيّن لنا أنّ ممارساته التّطبيقيّة تنطوي على وعي وفاعليّة؛ حيث إنّ خصوصيّة النّص مقدّمة على صرامة المنهج، فكان لزاما أن يتكيف المنهج مع معطيات النّص لا العكس. وهو ما حقق أصالة مشروع النّاقد وجلّى اجتهاده في الممارسة.

لعلنا بعد هذه الإطلالة العجلى على مشروع النّاقد الجزائري عبد الحميد بورايو أن نُهيب بالباحثين والمهتمين بالدّراسات النّقديّة إلى الاهتمام بهذا المشروع المهم ذي المستويات المتعددة، والأهداف المتنوعة، والمناحي المتشعبة، علّهم يقدموا توصيفا له أوفى، ويعرفوا بإسهامات هذا النّاقد الذي كان له قصب السّبق – جزائرياً– في احتذاء منجزات الحداثة الغربيّة في تناول النّصوص الأدبيّة، خاصة السّرديّة الشّعبيّة.

7. قائمة المراجع:

- جيرالدّ برنس، المصطلح السّردي، تر: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر، ط1، 2003.
- حميد لحمداني، بنيّة النّص السّردي، من منظور النّقد الأدبيّ، المركز الثّقافي العربيّ، بيّروت، لبنان، ط1، 1991.
- شريبط أحمد شريبط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2001.
- عبد الحميد بورايو، الأدب الشّعبيّ الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط 2007.
- عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحيّة في الأدب الشّفوي الجزائري دراسات حول خطاب المرويات الشّفويّة، الأداء والشّكل والدّلالة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط، 1998.
- عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنّفسي في الأدب الشّعبيّ الجزائري مؤسسة بونة للبحوث والدّراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2008.
- عبد الحميد بورايو، الحكايات الخرافيّة للمغرب العربيّ، دراسة تحليليّة في "معنى المعنى" لمجموعة من الحكايات، وزارة الثّقافة، الجزائر، دط، 2007.
- عبد الحميد بورايو، في الثّقافة الشّعبيّة الجزائريّة، التّاريخ والقضايا والتّجليات فسيرا للنشر، الجزائر، ط1، 2011.
- عبد الحميد بورايو، من تقديمه لكتاب: البنيّة السّرديّة في النّظريّة السّيميائيّة، دار الحكمة، الجزائر، دط، 2001
- عبد الحميد بورايو، منطق السّرد، دراسات في القصّة الجزائريّة الحديثة منشورات السّهل، الجزائر، دط، 2009.

- عبد الحميد بورايو،القصص الشّعبيّ في منطقة بسكرة، دراسة ميدانيّة، الطباعة الشّعبيّة للجيش، الجزائر، دط، 2007.
- فلادمير بروب، مورفولوجيّة القصّة، تر: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو شراع للدراسات، دمشق، سوريا، ط1، 1996.
- قادة عقاق، السّيميائيات السّرديّة وتجلياتها في النّقد المغاربيّ المعاصر (نظريّة غريماس نموذجا)، أطروحة دكتوراه في الأدب العربيّ (مخطوط)، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، 2004.
- يوسف وغليسي، في ظلال النّصوص، تأملات نقديّة في كتابات جزائريّة، جسور للنشر والتّوزيع، المحمديّة، الجزائر، ط1، 2009.
- حمزة بسو، الوعي النّقدي في تلقي المنهج الغربيّ عند عبد الحميد بورايو، التّحليل الوظائفي نموذجا، مجلة العلوم الاجتماعيّة، جامعة سطيف2، ع21، ديسمبر 2015.
- موقع المكتبة: *www.almaktabah.net* (بتاريخ:2012/10/30)

8. هوامش:

[1] ينظر: حوار مع النّاقد عبد الحميد بورايو، توقيع اللقاء: علي ملاحي، الموقع الإلكترونيّ: www.almaktabah.net.

[*] هذه العناوين –فيما يبدو لنا– لم تلق الرواج والاحتفاء اللازم على الرغم من قيمتها المعرفيّة والمنهجيّة للأسباب الآتيّة:

- أنها عناوين لم تكشف عن طبيعة المقاربة النّقديّة والمنهج، باستثناء (التّحليل السيميائي للخطاب السردي) و(المسار السردي وتنظيم المحتوى)، بل إن معظمها يحيل على النّوع الأدبي ولا يكاد يجاوزه إلى بيان كونه مقاربة نقديّة، مثال ذلك: (القصص الشّعبي في منطقة بسكرة دراسة ميدانيّة)، (الحكايات الخرافيّة للمغرب العربي)، (البطل الملحمي والبطلة الضحيّة)، (الأدب الشّعبي الجزائري)، (البعد الاجتماعي والنّفسي في الأدب الشّعبي الجزائري).
- طبيعة المادة السرديّة المعالجة والممثلة في الأدب الشّعبي، وهو أدب مهمش في الأوساط الثّقافيّة العربيّة عموما والجزائريّة على وجه الخصوص.
- إغراق هذه العناوين في المحليّة، إذ يحيل معظمها على الرقعة الجغرافيّة الجزائريّة.

[2] عبد الحميد بورايو، من تقديمه لكتاب: البنيّة السرديّة في النّظريّة السيميائيّة، دار الحكمة الجزائر، دط، 2001، ص 06.

[3] عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطل الضحيّة في الأدب الشّفوي الجزائري، دراسات حول خطاب المرويات الشّفويّة، الأداء والشّكل والدّلالة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر دط، 1998، ص 89.

[4] عبد الحميد بورايو، في الثّقافة الشّعبيّة الجزائريّة، التّاريخ والقضايا والتّجليات، فسيرا للنشر الجزائر، ط1، 2011، ص 222.

[5] قادة عقاق، السيميائيات السرديّة وتجلياتها في النّقد المغاربي المعاصر (نظريّة غريماس نموذجا)، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي (مخطوط)، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس 2004، ص 303.

[6] ينظر: المرجع نفسه، ص 303.

[7] حميد لحمداني، بنيّة النّص السردي، من منظور النّقد الأدبي، المركز الثّقافي العربي، بيروت لبنان، ط1، 1991، ص 05.

[8] ينظر: عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائريّة الحديثة، منشورات السهل، الجزائر، دط، 2009، ص 32-33.

[9] محادثة مع النّاقد عبد الله إبراهيم، يوم 2012/10/30.

[10] شريبط أحمد شريبط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، ط1، 2001، ص 19.

[11] عبد الحميد بورايو،القصص الشّعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانيّة، الطباعة الشّعبيّة للجيش الجزائر، دط، 2007 ص 226.

[12] يوسف وغليسي، في ظلال النّصوص، تأملات نقديّة في كتابات جزائريّة، جسور للنشر والتّوزيع، المحمديّة، الجزائر، ط1، 2009، ص 318.

[13] عبد الحميد بورايو، البطل الملحمي والبطلة الضحيّة، ص 89.

[14] عبد الحميد بورايو، الحكايات الخرافيّة للمغرب العربي، دراسة تحليليّة في "معنى المعنى" لمجموعة من الحكايات، وزارة الثّقافة، الجزائر، دط، 2007، ص 123.

[15] ينظر: حمزة بسو، الوعي النّقدي في تلقي المنهج الغربي عند عبد الحميد بورايو، التّحليل الوظائفي نموذجا، مجلة العلوم الاجتماعيّة، جامعة سطيف2، ع21، ديسمبر 2015، ص 203.

[16] فلادمير بروب، مورفولوجيّة القصة، تر: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمو، شراع للدراسات دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص 38.

[17] عبد الحميد بورايو، الحكايات الخرافيّة للمغرب العربي، ص 17.

[18] ينظر: جيرالدّ برنس، المصطلح السردي، تر: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة مصر، ط1، 2003، ص 239.

[*] للاستزادة حول مسألة التّصنيف ينظر: عبد الحميد بورايو، الأدب الشّعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2007، ص 81-93.

[19] عبد الحميد بورايو، الحكايات الخرافيّة للمغرب العربي، ص122.

[20] عبد الحميد بورايو، البعد الاجتماعي والنّفسي في الأدب الشّعبي الجزائـــري، مؤسســـة بونـــة للبحوث والدّراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2008، ص 30.

[21] ينظر: القصص الشّعبي في منطقة بسكرة، ص151.

[22] ينظر: المصدر نفسه، ص 193.

[23] المصدر نفسه، ص192.